قدسيّة الحياة وكرامة الإنسان في القرآن الكريم

نموذجٌ لعلم كلامٍ معاصر

عبدالله توفيق شرقية*

شاع في زمننا خواءٌ روحيٌّ رهيبٌ، بعدما تعدّدت اهتمامات الإنسان المعاصر، وتشتّتت قدراته، وتشعّبت حاجاته، ولا تزال في تشعبٍ كلما تطاول الزمان وتراكمت الاكتشافات وزادت الصناعات، فكادت التقنيّة أن تستهلك إنسان عالمنا، حتى لكأنها أخذت تأكلنا وتبتلعنا شيئًا فشيئًا.

وكثيرًا ما نلحظ ملامح قلقٍ عميقٍ خلف وجوهٍ ناعمة وثغورٍ باسمةٍ، ونسمع أخبار انتحاراتٍ فرديةٍ أو جماعيةٍ، أو ممارسات ألعابٍ بهلوانيةٍ خطرةٍ قاتلةٍ، يدخلها الهواة مع كامل العقل والوعي والشعور. ويُقدِم الكثيرون على ذلك بملء إرادتهم، وقد يكون أحدهم سائق قطارٍ أو طائرةٍ فيتسبّب في مقتل العشرات أو المئات. وما كان ذلك ليحدث لو أنهم عرفوا قيمة الحياة، وفقهوا معنى الوجود، وأمعنوا النظر في مقاصده الكبرى. لو أنهم تبصّروا كلّ ذلك لما كان يمكن أن يُقدموا على تدمير هذه الصنعة الربانيّة المعجزة الباهرة، والنعمة الإلهيّة الثمينة الباقية. هنا تأتي حكمة القرآن الكريم لتقول للإنسان اليائس أو المتشائم: ارفع رأسك، تأمّل طويلًا في معاني الحياة السامية، دقّق مليًّا في أهداف الوجود الكبرى، وأمعن النظر في غايات الخلق العليا، كي لا تذهب حياتك هدرًا، ولا يمضي وجودك بائسًا دون جدوى.

وجاء في مقولات الصوفية، رقائق أثيرةٌ ولطائف غزيرةٌ، تبيّن أهميّة اغتنام فرصة الحياة، وتحذّر من أخطار تضييعها. من ذلك ما ورد عن الحسن البصريّ (642 – 728م) قوله: "ابن آدم، تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، وأنت المعنيّ، وإياك يراد[1]"، أي من هذا الوجود. ومنه قوله: "ابن آدم، إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همّك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبدًا[2]". وكان بعضهم يبكي ويقول: "ليس لي نفسان، إنما لي نفسٌ واحدةٌ إذا ذهبت لم أجد أخرى... وأنشد بعض المتقدمين:

أثامن بالنفس النفيسة ربّها
وليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها تملك الأخرى فإن أنا بعتها
بشيءٍ من الدنيا فذاك هو الغبن
لئن ذهبت نفسي بدنيا أصيبها
لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن"[3]

ومما قالوا في ذلك:

"قد رشّحوك لأمرٍ لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

فواأسفى على فقدان الحكيم الكامل الكبير، وعلى الفتى الحرّ النحرير..

أتمنى على الزمان محالًا
أن ترى مقلتاي طلعة حرّ..."[4].

ومن عالم الحداثة ما جاء عن أينشتاين (Albert Einstein/ 1879 – 1955) ما يفيد أهميّة الشعور العميق بهذا الإحساس الصوفيّ السامي في الحياة، من ذلك قوله: "إن أجمل انفعالٍ يمكن أن تهتزّ له نفوسنا هو الانفعال الصوفيّ، فهو أصل كلّ فنّ، فمن فقد هذا الشعور ولم تجد الدهشة سبيلًا إلى نفسه فهو ميّت يحيا هلوعًا.. والسلام[5]".

– حيواتنا بين ماضٍ قريب وحاضرٍ بعيد

عند التأمّل بين الماضي والحاضر نجد أننا تعلّقنا بالمادّة من حولنا، وشغلتنا هواتفنا الذكيّة، ومجتمع الشبكة الافتراضية عن نقاوة التمتّع بالحياة المباشرة، ونأينا بعيدًا من ذواتنا، وعن حميميّتنا مع إنسان مَن حولنا من أقارب وجيرةٍ ورفاق عشرةٍ في الحيّ والمدرسة والجامعة والعمل والسفر، وابتعدنا من كائنات الطبيعة من أشجارٍ وبساتين ومروجٍ وأنهار، وعن ذكرياتنا معها في الطفولة والفتوّة والشباب، سواءٌ في الربيع أو الصيف أو الشتاء أو الخريف. فانفصلنا عن باطن أعماقنا، وعن شفافيّة الروح فينا، وعن جوانيّة الحياة الغنيّة كالكنز الثمين، وعن اغتنائها بالمفيد الممتع، والمسلّي البارع، والمبعد عن رتابة الوظيفة وسأمة العمل الآليّ، وانغمسنا في عالم الآخرين الخارجيّ كالتيّار الجارف المتموّج المتلاطم، وأخذ يرتادنا شبح الأرق وهاجس القلق على الوجود والمصير، بعدما ظننّا أننا تفلّتنا منه برهةً من الزمن[6].

لقد كنّا حتى الأمس القريب لا نزال نتحاور في لقاءاتنا وتجمعاتنا ومنتدياتنا العامة والخاصة، ومنازلنا وأسواقنا. لقاءاتٌ كان يتجلّى فيها فكر الإبداع الإنساني، ويتوقّف فيها الزمن العابر الخفيف، ويتأمّل معها المرء لوحات إبداعات الخالق في عوالم الوجود والحياة، ويتردّد ذلك في اجتماعاتنا وساحاتنا ومشاهداتنا وإبداعاتنا.

وبهذا كانت تظهر لذواتنا صورة إنسان المجتمع البشريّ المتقارب الممتلئ بالطموح والزاخر بالمناقشات والصاخب بالمخاطبات والمحاورات، والمنسجم بروحه ووجدانه مع الآخر، والآخر، والآخر، أي مع مجتمعه كله، ليكون جزءًا من حيث يشعر أو لا يشعر، في تشكيلة هذا الكيان/الكلّ الروحيّ المتكامل، الذي تمتزج فيه ألوانٌ عديدةٌ، وتتداخل فيه أفكارٌ متعانقةٌ، وتترابط فيه رؤىً متساندةٌ، وتتشابك فيه أمانٍ متعاضدةٌ، وتتوحّد فيه قيمٌ نبيلةٌ وأهدافٌ ومقاصد عليا، فيتماهى الفرد بالجماعة ويغدو جزءًا حقيقيًّا منها، كأنه قطعةٌ متجسدةٌ منها، يختصر الكلّ وينصبغ بخصوصياته، ويعطي هذا الكلّ شخصيةً معنويةً متماسكةً، أشبه ما تكون بنواةٍ صلبةٍ تحمل خواصّ الحياة وخصوصيات شجرةٍ باسقة، تتجلّى فيها شكلانيةٌ زجليةٌ ورمزيةٌ سرياليةٌ وموسيقيةٌ ذات إيقاعٍ داخليٍ ونبضٍ حيويٍ ومشاهد وألوان.

ومع ابتعادنا عن هذه الأشجان والشجنات المرافقة لتلك اللقاءات والمولّدة لمشاعر السعادة والهناء، والشاحنة للآمال والمبلسمة للآلام وحالات العناء؛ فليس غريبًا ولا بعيدًا عن إنساننا، أن يعود إلى ذاته من خلال هذا الآخر، أي إلى ذاته البريئة الأصلية

المفطورة على الحبّ والتسامي والانطلاق في رحاب الفساحة والآماد، لتلتقي في العلوّ مع الذوات الأخرى المتسامية أيضًا في تعالٍ "ترنسندالي" نعيش معه وبه لحظة التوحّد والتكتّل والصلابة الروحية والاغتناء والاكتناز بالوجود الخِلْقي والخُلُقي الإنساني الشفاف، ونستنشق معه عبير الحرية الجماعية/الفردية، مستمدّين كلّ ذلك التعالي من ترسيخ أقدامنا في تربة التراث، واستخراج كنوزه الغالية ودرره الثمينة.

لكن ذلك كان ولا يزال بحاجةٍ حقيقيةٍ إلى استحداث مشروعٍ تغييريٍ نهضويٍ في الذات الفردية والمجتمعية من خلال تفجير ثورةٍ إيجابيةٍ بناءةٍ، تعمد إلى تثوير تربة تراثنا وفتق ذراتها وذريراتها في عملية بعثٍ ونشرٍ وتهوئةٍ، وتعريضٍ لمكنوناتها ومنغلقاتها إلى أشعة شمس الفكر ونسائم رياح النظر والبحث والتدقيق. وبذلك تسطع على الفكر الجماعي الراهن عوامل الحياة الضرورية وأسباب الانبعاث، فتتحضّر جميع عناصر الحياة الكريمة لنا ولمن حولنا ومن بعدنا: من بذورٍ صلبة، إلى تربةٍ غنية، إلى تحريكٍ دائب، إلى تعريضٍ لهواء الفكر الحرّ، وتفاعل قوى الفكر الحيّة المتعدّدة ومنتدياتها المتنوعة، فتنطلق مسيرة التحرّر من القيود والجمود والانكماش والموت البطيء وصولًا إلى العزّة والكرامة وبلوغ ذروةٍ جديدةٍ من ذرى المجد، ربما لم يصل إليها أجدادنا، فيرتسم لنا في حاضرنا ومستقبلنا خطّ أفقٍ جديدٍ من آفاق الأماني في حدود نجوم السماء منصبغٍ بألوانه المتعددة البهية[7].

وهنا نلمح خيطًا دقيقًا ومتينًا يتراءى لنا من خلال ركام إحباطاتنا وإخفاقاتنا الراهنة سواء على مستوى هذه الثورات العربية والإسلامية المتعثّرة في القرن العشرين والعقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، أو على مستوى تعثّرات مجتمعاتنا المحلية وأفرادنا الشخصية. إخفاقاتٌ ما كان لها أن تحدث وتستمرّ لولا تضييعنا لبوصلة الاتجاه، وتنكبنا عن مخرج الانطلاق، وتضييعنا لمفتاح الخروج من بؤر الظلام، وعدم عثورنا على أبواب السلامة والنجاة. وأعني به خيط التراث المجدول بالحداثة، أو الحداثة المجدولة بالتراث، هذا الخيط الذي ننسج به ثياب الرفعة ونصل به حبل ما انقطع من علاقاتٍ وأواصر مع القريب والبعيد. إنه حبلٌ متينٌ يمنح ذويه التحقق في عوالم التجدّد والخلود، ويولّد ثقافةً حديثةً لم يشهدها أهل العصر بعد، أي ثقافة حداثةٍ طارئةٍ على رتابة الحداثة الراهنة ومخترقةٍ لحدودها المتمزقة والمهترئة والقائمة على خيوطٍ هشةٍ ومصالح ضيقةٍ وخيراتٍ محدودةٍ وإشكالاتٍ غير متناهيةٍ على صعيد العالم، لم تستطع أن تؤمّن السلام العالمي والهناء البشري ليومٍ واحد حتى الآن.

وما أحرانا أن نعود إلى خزانات التراث ننفض عنها غبارها، كي نستمد منها القوة والحياة، ونولّد ثقافة العصر القادم لإنسان الحضارة الكبرى المرتقبة من كل فردٍ في العالم، فتضيء فيه أشعّة الأمل، بعدما ملأت الحضارة المادية الجافة دنيانا بالتفاهة والألم والفراغ القيمي والخُلُقي

والروحي، ونخرت سوستها السوداء كيان حياتنا حتى العظم، وهدّدت آلاتها الصماء أجيالنا وحجرنا وشجرنا وبشرنا، ولا تزال تهدّد كلّ الحياة والأحياء بكلّ مؤذٍ سامٍ، وخطرٍ محدقٍ، وقلقٍ مطبقٍ، ورعبٍ مخيف. فكيف تعاطى العقل "العلميّ" و"الأدبيّ" المعاصر مع مشكلة الوجود ومع مشكلة الأبد المرتبطة تمام الارتباط بمشكلة حقيقة الحياة؟

– أزمة العقل المعاصر في نظرته إلى الوجود والحياة

لقد أعرض إنسان العصر الحديث – كما هو معلومٌ – عن التدبّر في أهداف الوجود والتأمّل في مقاصد الحياة والتمعّن في حكم خلق الإنسان، واستسلم لتلبية حاجات الجسد والتوقف عند حدودها، وسماع مقولاتٍ تردّد عبارات اليأس من نتائج الوجود والتشكيك في غايات الحياة. فمن قائل بأن الحياة عبثٌ مأساويٌ أليم، وأن إرادتها شريرةٌ تعمل على تعذيب الإنسان وتعاسته وتحقيق رغباتها الجامحة في تأرجحه بين اللذة والألم، وكذلك الأمر بالنسبة لجميع ذوي الحياة[8].

ومنهم من يرى حقيقة الوجود قائمةً في التناقض والتهافت المستمرّين اللذين يظهران في تصادم الوعي لدى الإنسان، وفي الصراع التاريخي، أو من يرى أن القوة هي الفضيلة الرئيسة في الحياة، وما قيم الحقّ والخير والتواضع والمساواة ومحبّة القريب والفضائل الأخرى إلا من ابتكار الضعفاء للاحتيال على الأغنياء والسيطرة على مشاعرهم وإراداتهم[9]. ومنهم من يرى أن لا حقيقة للوجود خارج الأحاسيس الظاهرة، وأنّ ما عدا ذلك أوهامٌ وخيالات، كالسوفسطائيين القدامى وبعض المعاصرين. ومع أن هذه الأفكار لا توصل إلى شيءٍ في نهاية الأمر، أو تنتهي إلى العدم، وقد تسبّب للبعض اختلالاتٍ عقليّةً أو نفسيةً، مع اعتلالٍ في الصحّة أحيانًا، وقد يدوم هذا الحال لعشرات السنوات وصولًا إلى الوفاة... إلا أنها تسجّل في بعض الكتب المشهورة بمظهرٍ من الحكمة وطابعٍ من الشجاعة، وتجري الأقلام خلفها من صياغةٍ أدبيةٍ إلى ترجماتٍ أمينةٍ وعديدةٍ ومتنافسةٍ وإلى شروحٍ وتعليقاتٍ وتفسيراتٍ تكاد لا تنتهي.

وقد دأب أدباء عصر النهضة على ترداد بعض هذه المقولات، فمثلًا جاء في ديوان الشاعر اللبناني إيليا أبي ماضي (1889 – 1957):

"جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقًا فمشيت
وسأبقى ماشيًا إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري
إنما القول بأنا للخلود
فكرة أوجدها حب البقاء
نعشق البقيا لأنا زائلون
والأماني حيّةٌ في كلّ حيّ
زعموا الأرواح تبقى سرمدا
خدعونا نحن والشمع سواء"[10]

ويظهر جليًّا أنه يقصد – فيما يقصده – أن لا غاية للحياة سوى الموت.

ومثلٌ آخر من كتابات جبران خليل جبران (1883 – 1931): "إنما الناس عبيد الحياة، وهي العبودية التي تجعل

أيامهم مكتنفة بالذل والهوان، ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع. ها قد مرّ سبعة آلاف سنةٍ على ولادتي الأولى، لم أرَ غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبّلين. في ظلّ وادي الحياة المرصوف بالعظام والجماجم، سرت وحيدًا في ليلةٍ حجب الضباب نجومها وخامر الهول سكينتها. هناك على ضفاف نهر الدماء والدموع المنساب كالحيّة الرقطاء المتراكض كأحلام المجرمين وقفت مصغيًا لهمس الأشباح محدقًا إلى اللاشيء... ومنذ ذلك الحين، وأنا أحفر القبور وألحد الموتى"[11].

لا شكّ أن الإطلالة العامة على الفكر ترى أن العقل البشري قد توقف في معظمه – وليس كله بالطبع – عن إدراك الحقيقة الكبرى التي تنتظم الكائنات في سلكها، فحادت عن نظره منظومة كبريات حقائق الكون، ونظر إلى الحياة نظرةً ملؤها الحيرة والتشاؤم، ووقع في رعبٍ قاتلٍ ويأسٍ مخيف، وظلمٍ للحياة البريئة الصافية، وتجلى ذلك في أفكار التيارات الماديّة والمذاهب الوجودية والماركسية والحسية والعدمية واللاأدرية وسواها، وأخذ يصيغ تلك الرؤى بأنواع فنون الأدب، ويرسّخ مشاعر القلق من نتائج الحياة والتشكيك في جدوى الوجود عبر العديد من أدوات النشر ووسائل التعبير. وغالبًا ما يترافق ذلك مع الدعوة إلى الاهتمام بقضايا الإنسان ومصالحه كالحرية والمساواة وحقوق المرأة وحقوق الأقليات وغير ذلك.

لقد حكمت هذه الرؤى السائدة في العالم اليوم بأن العالم في معظمه شرٌّ، وأن الحياة مفضيةٌ إلى العدم. أما القانون الذي يحكم الوجود فهو التناقض، وذووا الحياة أسرى التوحش والافتراس، والإنسان شاهد المآسي. "فهذه الدنيا في نظره – أي إنسان التشكك في جدوى الوجود – بمثابة مأتمٍ عام، وجميع الأحياء أيتامٌ يبكون تألمًا من ضربات الزوال وصفعات الفراق، أما الإنسان والحيوان فمخلوقاتٌ سائبةٌ بلا راعٍ ولا مالكٍ، تتمزّق بمخالب الأجل وتعتصر بمعصرته، وأما الموجودات الضخام كالجبال والبحار فهي في حكم الجنائز الهامدة والنعوش الرهيبة"[12].

فالدنيا في هذه النظرات دار نياحةٍ ومأتم عويلٍ وأنينٍ لا ينتهي ولا يتوقف، وليس هناك أي معنىً لقداسة الحياة فيها، وليس للحياة أيّ سرٍّ أو أهميةٍ خارج نطاق المصلحة الآنية والمنفعة الخاصة الفرديّة، كما أنه ليس هناك من إمكانيةٍ لتحويلها إلى حياةٍ أخرى خالدةٍ كبرى، خارج نطاق العالم الحسيّ المشاهد المؤقت الملموس.

وإذا قرأنا مشاعر الإنسان المعاصر نحو الوجود حوله، فسوف ندرك بأنه لا يشهد في الوجود إلا خلاءً كونيًّا رهيبًا يتربّص ليفتك به، وأن الكرة الأرضية كوكبٌ طائشٌ من بين ملايين النجوم في ملايين المجرات، التي تسير ملايين الكيلومترات بلا هدفٍ ولا مغزى، ومع أنها تحتوي على ما لا يحدّ من الأحياء، إلا أنّ أكثريتهم محتاجون يسحقهم الموت والمرض كلّ دقيقة، فضلًا عن مشاعر الخوف والجوع والقلق المستمرة، فكأن الكرة الأرضية فوضى مكدسةٌ أو عبثٌ متراكم.

لقد أظهرت هذه النظرات المعاصرة الإنسان على أنه كتلةٌ لحميةٌ ترجع أجزاؤه إلى العناصر الأربعة، وهو مع جميع بني جنسه لا يعْدون أن يكونوا كقطرات ماءٍ في بحرٍ لجيّ بالنسبة إلى هذا الكون، أو حبة رملٍ على شاطئ، حتى كأنه يتمٌ مجسّم، لا يعيش إلا حياةً قصيرةً لامحةً محدودةً محفوفةً بالمخاطر والأهوال، ومشوبةً بالحسرات والآلام. فيما لا تتحقّق سعادته إلا مقترنةً بإيذاء الآخرين، والتسلّط على مصالح الضعفاء، واقتناص اللذائذ المشبوهة، والتشبّث بالمنافع الأنانية، ثم يواجه المصير الأليم الحزين المحتوم.

لقد جمع العقل البشري أسئلةً كثيرةً تدور حول تحديد حقيقة الإنسان ومرتبته بين الكائنات، حتى يخيّل لكاتبٍ مشهورٍ أنه "لم يدع الإنسان سؤالًا عن نسبةٍ من النسب لم يطلب جوابه... لكن أجوبة القرن العشرين، مهما يكن من شأنها، فهي أجوبة العصر الذي يحلّ المشكلة الزمنية، ولا يتعدّاها إلى مشكلة الأبد، مشكلة ما مضى وما أتى من الدهر وما يأتي إلى غير نهاية"[13].

وهنا تكمن المشكلة الكبرى بالنسبة لإنسان الألفية الثالثة، فكيف يحدّد نفسه ووجوده وعلاقاته بالكون من حوله على ضوء أفكارٍ مليئةٍ بالكآبة والسوداويّة والعدميّة والنفعيّة البحتة؟ سيّما وأن الإحصاءات الحاليّة تذهب إلى أن أثرياء العالم الكبار الذين يعدّون على أصابع اليد الواحدة يتحكّمون بمعظم ثروات البشر، ويستنزفونها بطرقٍ عشوائية، بل وبإدارة الصراعات والحروب لتكريس مكانتهم وتكديس ثرواتهم وضمان نفوذهم ونفوذ ذويهم ومن حولهم؛ كما تظهر أن نسبة المصابين بمرض الكآبة تتجاوز الملايين من البشر، وتتزايد أعدادهم كلّ يوم. ولا خروج من هذه الحالة إلا برؤيةٍ كونيةٍ جذريةٍ تعيد الأمل إلى أعماقهم، وتزوّدهم بمعنى الحياة وجدوى الوجود وحيز الكينونة والاطمئنان على الذات والمستقبل.

لقد تحوّلت حياة الإنسان المعاصر في هذه النظرات والممارسات إلى حياةٍ سئيمةٍ مملةٍ، وتحوّل الكوكب الأرضيّ إلى مسرحٍ للعمليات الحربية المنظمة والمتوالدة بعضها من بعض، وتحولت المجتمعات البشرية إلى مجموعاتٍ مغلقةٍ بعضها عن البعض الآخر، ومتناحرةٍ في ما بينها تحكم فيها شريعة الغاب المنظمة – إذا صحّ التعبير – وإن غاب عن الكثيرين كيفيّة إدارة شبكة هذه الشريعة، وكيفيّة تحكّمها بمصائر الأكثريّة البشريّة.

وإذا كانت هذه القوانين المستقاة من ممارسات بعض الحيوانات المفترسة الشاذة، والقائمة على مبدأ: "الحياة للأقوى" قد دخلت دائرة التناقض العقلي، وأخذت شكل المنطق المغلوط أو المنطق اللامنطقي، أو طابع القانون غير القانوني – مع أنها رائجةٌ وجذابةٌ في عصرنا إلى حدٍّ كبير؛ فقد بات من المتعين على العقل البشري مراجعتها والوقوف على أضرارها، والتأكّد من مدى فساد الأسس المبنية عليها. إذ ما من شكٍّ في أنها إذا ما وضعت على محكّ التحقيق العلميّ المحكم المنضبط – كما سيأتي – سيظهر جليًّا بكلّ وضوحٍ لكلّ ذي

عقلٍ مستنيرٍ أنها أحكامٌ خاطئة، ولا يمكن أن تكون نتيجة ملاحظاتٍ علمية، أو استقراءٍ منطقي، أو تجربةٍ حسية، أو مقدماتٍ بديهيةٍ أفضت إلى قانونٍ كليٍّ مطردٍ مجرد، ثبتت حقيقته في الواقع.

فلا يمكن لهذه النظرات العدميّة المرتكبة والشكّيّة والباعثة للقلق والأرق أن ترقى إلى درجة العلوم المنضبطة، ولا أن تبلغ مرتبة الأقوال الصادقة المعتمد عليها أو الموثوق بها بحال، بل لا بدّ أن تكون نتيجة أحكامٍ سطحيةٍ سريعةٍ، وتستند إلى أهواءٍ وجهالاتٍ مركبة، وامتزجت تمويهًا بالعلوم المنضبطة، ونسبت تشويهًا وتزويرًا وتحريفًا إلى القوانين العليا المطّردة، وقرنت خطأً وضلالًا بقضايا الإنسانية ومبادئ البشريّة المقدسة. وكلّ ذلك يؤدي بالإنسان والبشرية إلى أحوالٍ سيئةٍ ومفاسد كبرى لا يمكن الوقوف على ضخامتها وشناعتها، ولا تخفى على أحد، ولا بدّ أن تسهم في تردّي الأوضاع النفسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والأمن الاجتماعيّ. وهذا ما يستدعي توقفًا عند حقيقة هذه الأقوال وتفنيدها، وبات من المتعيّن التأمّل في حقيقيّتها أو وهميّتها، وصولًا إلى إثباتها وتأكيدها وبيان تناسقها وترابطها وتكاملها إن صحّت، أو نقضها وإبطالها، وبيان تهافتها وتناقضها إذا ما جانبت الحقيقة والصواب، ومقابلتها بنظرةِ القرآن الكريم خاصةً والكتب السماوية عامّةً إلى الحياة وأهدافها العليا.

- **تحوّل النظرة العلمية لأصل الحياة**

أثارت نظريات التطور الطبيعيّ لدى علماء الفيزيولوجيا الرغبة الشديدة إلى التدقيق في أصل الإنسان، وراح العلماء والباحثون يتأمّلون أطوال الأوردة والشرايين، فوجدوا أعدادًا هائلةً للخلايا داخل كل إنسانٍ، تقدر بثمانين تريليون خلية (80 وبجانبها 18 صفرًا). وداخل كلّ واحدٍ منّا شرايين وأوردةٌ يمكنها أن تلفّ الأرض لمرتين ونصف، بطول مائة ألف كلم. وهنا بدأت تتراجع نظريّة التطور أمام تقدم العلم لحساب نظرية البرمجة الخارجيّة، وضرورة استنادها إلى علمٍ لا متناهٍ مرتبطٍ بالوجود المحيط والكون كله. وهي نظريّةٌ تلتقي مباشرةً مع عقيدة الخلق في الأديان السماويّة.

جاء في موسوعة "الويكيبيديا" ما يلي: "الجينوم البشري (Human genome) هو كامل المادة الوراثية المكونة من (الحمض الريبي النووي منزوع الأكسجين) والذي يعرف اختصارا (د. ن. أ. DNA). وتحدّد هذه البروتينات – ضمن أشياء أخرى – هيئة الشخص، وطوله ولون عيناه وهكذا، إلى جانب كيف يستقبل metabolize جسمه الطعام أو يقاوم العدوى.

ويتكون جزيء "الدنا" (DNA) في البشر والرئيسيات، من سلسلتين يلتفّ كلٌّ منهما حول الآخر بحيث يشبهان السلّم الملتوي. ويحتوي الجينوم البشري، على 3 مليارات زوج من القواعد النتروجينية (لو رمزنا لكلّ قاعدةٍ بحرفٍ من حروف الكتابة لملأت 3 آلاف كتابٍ يحتوي كل كتابٍ على 500 صفحة، أي لشكل مجموعها كتابًا كبيرًا يبلغ ارتفاعه ارتفاع ناطحة السحاب في مبنى إمباير ستيت، كلّ ذلك في نواة خليةٍ بشريةٍ

واحدة). ويحتوي الجسم البشري على نحو 80 تريليون خلية"[14].

ويقدّر بعض الباحثين عدد هذه الخلايا بمائة تريليون خلية. وأن الجينات الوراثية (DNA) عبارةٌ عن حلقاتٍ من سلسلتين مضفورتين على بعضها في ضفيرةٍ واحدة، مدفونةٍ ومطويةٍ بطريقةٍ مثيرةٍ داخل كلّ خلية. ويمثل قطر الجين في الخلية جزءًا من مائة جزءٍ من المليمتر. ومن العجيب أن هذه الخلية لو مدّت لأصبحت بطول مترين اثنين، ولو مددنا هذه المواد الوراثية فرضًا لأصبح طول شريط الجينات الوراثية أبعد من المسافة بين الأرض والشمس ما يوازي ألفًا وثلاثمائة وثلاث وثلاثين مرة. وكلّ جزيئةٍ من هذه الجينات تمثّل مكتبةً فيها ألف كتاب، في كل كتابٍ ألف صفحة، فالناتج يحصل مليون صفحةٍ، في كل صفحةٍ ثلاثة آلاف حرف، أي في كلّ واحدةٍ من هذه النوايا ما يوازي ثلاثة مليارات حرف[15].

فهذه التريليونات من الوحدات المتناهية الصغر داخل النواة التي تمثل جزءًا على مائة جزءٍ من المليمتر الواحد وتحمل من المعلومات ما يوازي مليون صفحةٍ من البيانات، وثلاثة مليارات حرف، أي موسوعةً ضخمةً من أهم الموسوعات، تجعل لكلّ إنسانٍ مواصفاته الخاصّة في مختلف تفاصيل حياته، وتعطيه خصائص اللون والبشرة والطول والعرض وغير ذلك من الفوارق الدقيقة لكلّ فردٍ والمحدّدة لهويته الشخصية.

وهنا يحقّ لنا أن نسأل دارون (Darwin) والقائلين بنظريّة التطور سؤالًا علميًّا بحتًا: كيف يمكن لهذه التريليونات المعقّدة بحجم تعقيد النجوم والمجرّات الضخمة اللامتناهية أيضًا – بحسب إمكانيات الإنسان – أن تولد بنفسها دون تدخل إلهيّ حكيم يحيط بها علمًا، ويبرمج نشوءها وينظم علاقاتها ويحدّد طرق استمراريتها؟ وكيف يمكن للصدفة والتهارج والتداخل غير المراقب ولا المبرمج ولا المخطّط له بطريقةٍ هندسيةٍ منسقةٍ ومتناظرةٍ، أن تضمن تماسكها للحظةٍ واحدةٍ فضلًا عن عشرات السنين؟ أليس هذا ضربٌ من المستحيل، بل أليس في الواقع ضربًا من مستحيل المستحيل؟

من هنا نلاحظ بحسب قراءاتنا أن كبار الباحثين والمدقّقين أخذوا يتراجعون شيئًا فشيئًا عن فرضية أوهام الصدف في تشكيل جسم الإنسان، ولو ظلّت مليارات المليارات من السنين، لأنّ تطاول الوقت عليها لا يزيدها إلا تخبطًا وعشوائية؛ وأخذوا يرجّحون نظرية البرمجة البالغة الدقة في تركيبها وتعقيداتها الهائلة، والمرتبطة بالنظام الكوني كلّه، وصولًا إلى عالم الشمس والقمر والكواكب والمجرات. ورأى كثيرٌ من علماء ما بعد القرن التاسع عشر استحالة تشكّل الخليّة بنفسها، سواءٌ من خلال نظرية التطور أو غيرها من النظريات التي تعتمد الذاتيّة أو الصدفة أو غير ذلك من نظريّات العبثيّة والعشوائيّة واللاقصديّة المساوية في الحقيقة لمفهوم: "اللاعلميّة" والمطابقة له تمامًا.

ذلك لأن نظرية دارون التطوريّة تحيل في النهاية سبب نشأة الحياة إلى اختلاط

موادّ الإنسان وانتخاب بعضها البعض ذاتيًا دون تدخّل من غيرها، وتصرّ على استبعاد البرمجة والتنسيق العلميّ الهادف المنظم الحكيم. وهذا ما لا يمكن أن يقبله العلم، لأن احتمالات الفشل لا نهائيّة، واحتمال النجاح واحدٌ من ملياراتٍ مضاعفةٍ في تكوين أيّ كائنٍ حيّ. فهل يمكن مثلًا لصيدلية أن تختلط ببعضها نتيجة زلزالٍ مدمر، فتنتج بالصدفة دواءً واحدًا مفيدًا فقط بنسبٍ دقيقةٍ؟ فإن قبلنا بهذا الفرض فكيف يمكن أن نتصور حصول مئات الأدوية الدقيقة المختلفة لحالات شتى؟ إنه يستحيل علميًّا للفوضى في هذه الحالة أن تنتج إلا فوضى مضاعفةً، ولا بدّ أن يزداد التبعثر والاختلاط، بدلًا من توقّع النظام والعلميّة والدقة والوزن الدقيق المتناسب بمعايير هادفةٍ، وصولًا إلى ما يسبّب الحياة ويؤدي إليها.

وبهذا تحتاج كل خليةٍ من هذه التريليونات التي تشبه مدينةً كاملةً إلى مئات محطات التوصيل والنقل والإدارة بالنظر إلى ما يجري من تصنيعٍ داخليٍ وعلاقات مع من حولها من كرياتٍ بيضاء وحمراء وخلايا مخٍ وأعصاب عينٍ وأذنٍ وغير ذلك. كلّ ذلك دفع أحد أنصار نظرية التطور – دكتور أوبارين الروسي – إلى الاقتناع بأن عملية تشكيل الخلية تشكل الركن المظلم من نظرية التطور. كما دفع أركان اكتشاف الجينات وجمهرةً هامّةً من أشهر علماء الحياة والفيزياء والفلسفة إلى رفض هذه النظرية جملةً وتفصيلًا[16].

وقد أوردت "ويكيبيديا" المشهورة بموثوقيتها، قائمةً بأشهر الكتّاب المعاصرين الذين رفضوا نظرية التطور، وأوردت أسماء أشهر الكتب التي أثبتوا فيها هشاشتها واعتمادها على التزوير والمغالطات. وأوردت رسمًا كاريكاتوريًّا لداروين بنصف قردٍ ونصف إنسان. ولا شكّ أن هذه الكتابات لا تصدرها هذه الموسوعة العالمية صدفةً بلا مغزى، بل لا بد أن القائمين عليها واثقون من أقوالهم بنسبةٍ كبيرة. ومما جاء في هذا الإحصاء لأشهر الرافضين لنظرية التطوّر:

الأميركي **ديفيد بيرلينسكي** (David Berlinski) عالم الرياضيات والبيولوجيا الجزيئية والفلسفة، وهو أشهر من انتقد التطور الذي يرى أنه يروّج بين الناس باسم العلم والحقائق، وذلك بعدما زادت شكوكه الكثيرة حوله كلما تقدمت العلوم. وقد أعلن ذلك على الملأ في مجلة "كومينتاري" عندما قال: إنه متشكّكٌ في التطور، في مقالٍ بعنوان: إنكار داروين عام 1996. وفي السنوات الأخيرة وضع كتابه الشهير "وهم الشيطان" عام 2008، وله حواراتٌ مليئةٌ باعترافاته من سخرية العلماء الحقيقيين من التطور، ومليئةٌ بالسخرية العلمية من افتراضات التطور الخيالية، ونقاط ضعفها القاتلة.

الاسترالي **مايكل دنتون** (Michael Denton): عالم الكيمياء الحيوية الذي كان يؤمن بالتطور في السابق إلى أن بدأ يكتشف بنفسه مع التقدم الرهيب في البيولوجيا الجزيئية عشرات الثغرات القاتلة عن التطور، فوضع ساعتها كتابه الشهير التطور "نظرية في أزمة". وهو من أوائل

الكتب التي قلبت نظرية التطور في العصر الحديث رأسًا على عقب، وذلك عام 1985، وله مشاركاتٌ عديدةٌ في وثائقياتٍ علميةٍ عن الدقة المتناهية، وعلامات التصميم الذكي في الحياة والأرض والكون وصولًا إلى الإنسان، فقد ترجم أعماله في كتابه: "قدر الطبيعة" عام 1986.

الأميركي **مايكل بيهي** (Michael Behe): وهو عالم متخصص في الكيمياء الحيوية وأستاذ بجامعة "Lehigh" في بنسيلفانيا بأميركا. وقد ساورته شكوكٌ كثيرةٌ أيضًا في التطور مع تخصّصه العلمي الدقيق، والاكتشافات العلمية الأخيرة، وخصوصًا عندما قرأ كتاب التطور "نظرية في أزمة" لمايكل دنتون، ووجد أن كلّ النقاط التي ذكرها بالفعل طعنت التطور الصدفي والعشوائيّ، فألّف كتابه الشهير، "صندوق داروين الأسود" عام 1996. ويعدّ من أشهر من أسّسوا ووضعوا قواعد التصميم الذكي أو الصنع المتقن في شكلها الأكاديمي الأخير. وخصوصا نقطة التعقيد غير القابل للاختزال ودلالاته على استحالة التطور التدريجي العشوائي عبر الزمان، وعلى دلالاتها على الغائيّة لظهور الأعضاء المعقّدة مرةً واحدةً من جهة مصممٍ ما.

الأميركي **جوناثان ويلز** (Jonathan Wells): وهو عالم البيولوجيا الجزيئية الأمريكي. فمع دراسته للبيولوجيا الجزيئية ومع الاكتشافات الحديثة أيضًا الناطقة بعلامات الغائية والخلق تراجع عن إلحاده إلى المسيحية. وصار من أعداء نظرية التطور. وهو صاحب الكتاب الشهير "أيقونات التطور" عام 2002، وأيضًا له كتاب "تصميم الحياة" مشاركة مع ديمبسكي"[17].

– **نظرة القرآن إلى الحياة والوجود**

عند التأمّل الهادئ للحياة في لحظات النظر العقليّ الأنيق لا بدّ أن نجدها في الحقيقة جميلةً شفّافةً صافيةً، ذات جوهرٍ لطيفٍ راقٍ وأصلٍ علويّ صافٍ. وفي الكتب السماوية، تعكس الحياة رحمة الله تعالى وجمال ذاته وجلال صفاته وإرادة الخير والعطاء للأحياء وللإنسان. وهذه النظرة القرآنية يمكن أن نعبّر عنها بالمقولة التالية:

"لقد خلقنا الله ليرحمنا، ويكرمنا، ونكون معه في الأبد المطلق. وجعل الدنيا جميلةً بمعانيها، بأناسها، بمعانيها السامية، بأيامها الغالية، بالقلوب الصافية، بالمناظر الأخاذة، بالعقول الراقية، التي تنبت فينا الأمل، وتشعرنا بالدفء والرقّة والحنان، وألوان الحكمة والمودة والكمال، لمن نظر إليها من الوجه المشرق الوضيء، ولم يقتصر على الوجه الأسود الكالح الحزين".

وذلك يذكّر بالحكمة الأزلية الأبدية التي تكرّر مقولات الرحمة والمحبة واللطف الإلهيّ في خلق للإنسان، وإرادة الخير له ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[18] والبعد عن العبثيّة والتسلية والتلاعب في جوهره والكون المحيط به ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[19] مقابل قصر النظر الذي يتحكّم في رؤية الإنسان الهلوع للأحداث التي تجري عليه، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[20]. وكذا في قوله سبحانه: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ(5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾[21].

وتنكر هذه الحكمة الأزلية المتأتية من رحابة السماء أن تكون الحياة مسرحيةً هزليةً تعرض على أنغام الحزن واليأس والفراق الأبدي، وتدفع مشاهديها إلى نظرة التفاهة والتشاؤم والاحتقار، ومن ثم إلى النحر والانتحار المعنوي أو الماديّ الحسّي – كما هو شائعٌ في عصرنا وللأسف – سواءٌ كان ذاك النحر الإراديّ المشؤوم للذات أو للآخر، وللأخ في الوطن أو في الإنسانية، أو لأي حيٍّ كائنٍ في الوجود، أيّ وجود!

والتعريف الأساسي للحياة في الفكر البشري الفلسفيّ يظهر أن "القوى النباتية والحيوانية هي قوىً غاذيةٌ تحيل جسمًا آخر إلى مشاكلة جسمها، وقوىً يتمّ بها إدراك المحسوسات، وهي كمالٌ أول لجسم طبيعيّ آليّ من جهة ما يتولد ويربو ويغتذي ويدرك الجزئيات ويتحرك بالإرادة"[22]. أما الحياة الإنسانية، فهي ذات "نفسٍ ناطقةٍ وعقلٍ يقتدر به على إدراك الصور الكلية والماهيات المجردة إدراكًا مباشرًا"[23].

لقد كانت نظرة القرآن الكريم إلى الحياة نظرةً ساميةً تغلّف الوجود الحيّ بوشاحٍ لائقٍ رائق. فالحياة لها قيمةٌ كبرى، وأهدافٌ عظمى، ومقاصد عليا، وهي تمضي في طريق التقدّم المتواصل والكمال المستمرّ الذي لا يتوقف عند حدّ، حتى تصل إلى الأبد المطلق الذي لا يعتريه فناء، وإلى الجمال المطلق الذي لا يشوبه عيب، وإلى الكمال المطلق الذي لا يطرأ عليه خلل، وإلى السعادة المطلقة التي لا تخالطها أحزانٌ ولا مخاوفُ ولا هموم.

بالمقابل يمكن القول بأن القرآن الكريم قد انفرد بإيلاء الإنسان قيمةً عليا[24]. فهو المخلوق الأهمّ المستخلف في الأرض وما حولها، وهو المنتسب بوعيه إلى هذا الخالق ليكون أعجب مخلوقات الله وأكرمها، وهو الكتاب الجامع، والكون من حوله أشبه بصفحاتٍ رقيقةٍ من هذا الكتاب الضخم، وهو المخلوق الذي تباهى الله به على ملائكته وأكرمه غاية الإكرام، وجمع فيه خواصّ الكون كله، فكان مخاطبًا عزيزًا له، مرشحًا لتبوّأ أعلى المناصب وأرفع الدرجات. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[25]. وواضحٌ أن الأسس الرئيسة التي تتميز بها النظرة القرآنية، والتي كانت سببًا هامًا في إظهار قيمة الحياة الإنسانية، لا يمكن لأيّ نظرةٍ أخرى أن تقدّمها لا قديمًا ولا حديثًا ولا مستقبلًا، أو أن تظهر مثل ذلك التفضيل على أساسها ما دامت لا تمتلك تلك الأسس، ولا تحمل تلك الرؤية. فالسرّ الكامن في ذلك التفضيل متصلٌ بأحكامٍ قيميةٍ شاملةٍ للوجود بأسره أولًا وللحياة والأحياء ثانيًا من مبتدئه إلى ماهيته إلى نهايته. فالحياة قيمةٌ يجدر المحافظة عليها، وأشياء الكون حول الإنسان ذات أهدافٍ وغايةٍ ومعنى، والإنسان كائنٌ مسؤولٌ أمام هذا الوجود وأشيائه، وأمام الخالق ومقابل شرعه وقانونه.

ولا يمكن للإنسان أن يكون بينه وبين نفسه بعيدًا من أسئلةٍ ثلاثةٍ تحدّد أسس تفضيله، وهي: من أين؟ إلى أين؟ من أنا؟ ويتبع ذلك أسئلة هامةٌ مثل: كيف يتصور الإنسان حقيقة الوجود الخارجي؟ كيف يقرأ عالم الحياة؟ وكيف ينظر إلى وجوده فيها؟

– إجابات القرآن عن أسئلة أسرار الحياة الكبرى

الجواب عن السؤال الثاني هو موضوع البحث، أي – كيف يقرأ عالم الحياة – لكنه مرتبطٌ بالسؤال الأول ارتباطًا وثيقًا وتظهر نتائجه في السؤال الثالث، فلا بدّ من بيان كل ذلك. فلقد أضفى القرآن الكريم على كلّ موجود أحكامًا هامة حين علّق عليه حِكمًا عظمى وأناط بوجوده وظائف كبرى، وأوكل إلى كل موجودٍ – ولو كان ذرةً دقيقةً – مهمات عديدة بحيث ارتبط وجود هذه الذرة ببدنىً كثيرة وأكوانٍ عديدةٍ، فكأن هذه الذرّة الدقيقة مركز شبكةٍ معقدةٍ من الاتصالات والمهام والعلاقات، لذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[26]. ويقول جلّ وعلا: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[27].

والأرض في القرآن الكريم يظهرها الله تعالى كصحيفةٍ مبسوطةٍ ممدودةٍ لكتابات يد القدرة الإلهية البديعة المشتملة على بديع الكلام ومحاسن الرسائل وجميل المعاني كي تعرض على ذوي الأنظار والأفئدة، وتشاهد فيها آثار التناسق والتناغم والانتظام، وتقرأ فيها بليغ الحقائق وتعرف من خلالها جليل الصفات ومحاسن الأسماء. قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾[28]. فالله سبحانه وتعالى قد مهّد الأرض وأثبت فيها أعمدة محكمة ثم ملأها بالزروع والثمار المتناسبة المقدّرة بميزانٍ معلوم، وحكمةٍ مميزةٍ ومصلحةٍ مخصّصةٍ ومقدارٍ معين. وكل نباتٍ وزنت عناصره، وقدّرت بما يحتاجه. فقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾، أي مقدرٌ بقدرٍ معلومٍ موزونٍ بميزان الحكمة على وفق المصلحة بخواصّ وأوصافٍ معينة[29]. وقال أيضًا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[30] أي بقدرٍ واحدٍ لا يتجاوزه ولا ينقص عنه[31].

وبهذا الشكل تظهر آيات الوزن والتقدير من خلال انبثاق ذوي الحياة الكثيرة المختلفة. وهنا نشرع في الإجابة عن السؤال الثاني الذي يجيب عن كيفية قراءة الحياة قراءةً موضوعيةً مفيدة. فالحياة التي تحيط بالذرات والحجيرات الدقيقة والموجّهة الحركة تظهر فيها آثار الكمال والجمال والإبداع بشكلٍ واضحٍ جليٍ مركّز، وذلك بتسخير الأشياء لها أولًا، وبمخالفتها لقوانين الجمادات ونواميس الأشياء ثانيًا، وبظهور جلوات الجمال والكمال فيها ثالثًا. وحتى يظهر هذا المعنى لا بد أن نتوقف مع بعض الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذا الموضوع.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(3) وَفِي

الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[32].

فبينما الأرض الجامدة واحدة ذات تراب متشابه إذا بها تحتوي على (كلٍ) من الثمرات، كلٌ منها مؤلفٌ من زوجين اثنين، وبينما قطعها المتجاورة متماثلةٌ في تكوينها وتسقى بماءٍ واحد، إذا بها تشتمل على جناتٍ مختلفة الأنواع من زرعٍ ونخيلٍ ذات الأغصان المتعددة أو ذات غصنٍ واحد، فيها من الثمرات المختلفة المتباينة الأطعمة والمتفاوتة الأذواق، وفي ذلك معجزات القدرة وخوارق العادة لذوي الفكر وأولي النظر وأهل الإدراك والإمعان.

ويقول الله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[33]. فالشجر الأخضر الذي يشتمل على الرطوبة ويخلق من الماء المضادّ للاحتراق إذا به هو نفسه يستحيل نارًا موقدةً للحرارة ومولّدةً لها وأصلًا ومادةً للاشتعال، حتى تظهر الحياة بذلك وكأنها مجمعٌ للمتناقضات وموطنٌ للمختلفات وموئلٌ للآيات البيّنات الواضحات. ومن الآيات التي تشير إلى هذا الاختلاف والتميز في قوانين الحياة في عالم الحيوان قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾[34]. والمعنى: ألم يستدلّوا بإقدار الطير على الطيران في جو السماء على قدرتنا ليعلموا كيف يخلق الله الغرائب ويدبّر العجائب؟[35].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ(5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[36]. أي وخلق الله لكم الأنعام ذات المصالح والمنافع المختلفة لكم من أصوافٍ وأوبارٍ وأشعارٍ للبس والأثاث، ومن ألبانٍ للشرب ونسلٍ للأكل، ولكم في هذه الأنعام جمالٌ وفيها مفاخرةٌ، لأن الفائدة فيها أتمّ وتملأ النفس سرورًا والعين متعة[37]. وقد سميت الأنعام بذلك لأن كلّ ما فيها نعمٌ يستفاد منه.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾[38]. أي يخلقه الله لبنًا خالصًا وسيطًا بين الفرث، وهو الروث، وبين الدم المحيطين به، ويتخلّص بياضه وطعمه وحلاوته في باطن الحيوان من بين خلاصة المأكول، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله، ولا يتغير أو يتأثر به. وذلك دليل القدرة الإلهية والحكمة الباهرة[39].

ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[40]. ففي هذه الآية يبرز تحدٍ علميٌ للبشر للإتيان بمثل خلقٍ صغيرٍ وحقيرٍ في النظر العامّ من مخلوقات الله، وهو مع ضعفه لا يستطيع الإنسان ولا معبوده أن يستنقذ شيئًا سلبه إياه كالطيب والزعفران.

إن هذا التقدير الخاصّ من الكتاب العزيز للموجودات عامةً وللأحياء خاصةً،

بما لا يمكن أن نجد له مثيلًا في أية نظرةٍ أو رؤيةٍ بشريةٍ في تاريخ الفكر البشري الطويل لهو الأساس القويّ الذي تتحدّد على ضوئه معرفة قيمة الإنسانية، بحيث يظهر ذلك واضحًا في قيمة انتساب الإنسان إلى خالقٍ عظيم، فتكون له قيمةٌ كبرى تضاهي السماوات والأرض والشموس والنجوم والأقمار، مقابل القيمة الماديّة التي لا تساوي شيئًا يذكر مقابل تلك القيمة المعنويّة. ومن هنا كان بيان الحديث النبويّ الشريف الذي يظهر عجز الإنسان والإنسانيّة عن مواجهة التحدّي الإلهيّ الماثل للعيان والقائم في جميع الأزمان فيما يخصّ الخلق والإحياء، والذي يبيّن محوريّة مسألة التفرّد بالخلق من الناحية العلميّة والموضوعيّة. يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل "ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا ذرةً أو ليخلقوا حبةً أو ليخلقوا شعيرة"[41].

– الأثر التشريعي لنظرة القرآن إلى الحياة

ما من شكٍّ أن لنظرة التقدير القرآنية المميزة إلى الحياة، آثارًا تشريعيةً بالغة الأهمية، وتختلف اختلافًا بيّنًا عن القوانين البشرية التي لا تعطي الحياة أبعادها الحقيقية الكبرى ولا تربط التصرفات الموجّهة إليها بالأبد والخلود، ولا توليها الأهمية التي يوليها الكتاب العزيز إياها.

وإذا كانت تلك النظرات ترى أن الحياة تخدم ذاتها لنيل اللذائذ العابرة دونما اعتبارٍ لغاياتها العظمى، فلا عجب ألا تعير الأهمية اللازمة للاقتصاد في استعمال الأشياء، وعدم الإسراف والتبذير أو العبث في إتلافها، ولو أدى ذلك إلى إلحاق الضرر بذوي الحياة. وقد بات الكون حاليًّا مهددًا بالهلاك بسبب سوء استعمال النعم الممنوحة للبشرية، كما بات ذلك معلومًا وتتزايد التحذيرات منه يومًا بعد يوم.

كما لا تمانع تلك التشريعات من تعذيب الحيوانات بأبشع الأشكال وأشنعها في سبيل قضاء متعة التفرج وإشباع رغبة التفرج أو تسلية الصيد، ولو أدّى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإهدار دماء تلك الحيوانات البريئة.

مقابل ذلك نجد أن الشريعة الإسلامية شجعت على التعامل مع الكائنات بحكمةٍ وتدبرٍ، وتقديرٍ وإتقانٍ، واقتصادٍ واجتنابٍ للإسراف وسوء الاستعمال والهدر والعبثيّة والفوضى. وقد حثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإكثار من الغرس، وإفادة الأحياء منه والمضي فيه ولو عند قيام الساعة.

ففي باب: "رحمة الناس والبهائم" يورد البخاري (810 – 870م) نجد هذا الحديث الشريف: "ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة"[42]. كما يورد فيه قوله عليه الصلاة والسلام: "من لا يرحم لا يرحم"[43]. ويقول ابن بطال أحد الشرّاح (ت. 1057م): فيه الحضّ على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل فيه المؤمن والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدّي بالضرب"[44].

كما حثّ عليه الصلاة والسلام على اجتناب الإسراف في الماء ولو كان المرء على نهرٍ جارٍ متدفّق، وعلى إصلاح الطرق وأماكن الظلّ لما لها من الأجر الجزيل، وفي ملاحظة إرفاق هذه المساعي والأعمال بالأجر والثواب مقاصد ودلالاتٌ ذات مغزىً لا تخفى، إذ يدلّ ذلك على ملاحظة أن الأسباب الكونية نهجٌ شرعيٌ قويم، كما يفيده الأثران المعروفان: "فَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَمُوتَ أَبَدًا"[45]؛ "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجَزْ"[46].

كما حظّرت الشريعة كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى تعذيب الحيوان النافع وغير الضارّ، أو إحراقه بالنار، أو قتله بطريقةٍ مؤذيةٍ، أو اصطياده لغير حاجة، أو اتخاذه هدفًا للرماية. إذ ورد في الصحاح من الأحاديث النبوية ما يفيد تشديدًا في النهي عن ذلك، ففي "باب النهي عن صبر البهائم" يورد مسلم (822-875م) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا"، و"نهى عن صبر البهائم" أي حبسها لتتخذ غرضًا وتقتل بالرمي، و"أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من فعل هذا"[47]. وقد ذكر العلماء أن السبب في ذلك ما فيه من تعذيبه وإتلاف نفسه.

وفي باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة والرفق بالذبيحة يورد الإمامان مسلم وأبو داود الحديث التالي: "إن الله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته"[48]. فالإحسان إلى الحيوان قبل الذبح وأثناءه أمرٌ عام مكتوبٌ على الإنسان، وفائدة الذبح أنه يسهل موتها. لذلك نهى عمر رضي الله عنه عن سلخ الشاة بعد موتها قبل خروج الروح منها. كما نهى ابن عمر عن "النخع"، وهو القتل الشديد، وكلّ ذلك مع كثيرٍ مثله، من باب الإحسان إلى الحيوان[49]. قال النووي: "وهذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام"[50].

وفي باب "فضل ساقي البهائم المحترمة" يورد الأئمة حديثًا هامًا في موضوعنا ذا مغزى، وهو: أن رجلًا – وفي روايةٍ امرأةً بغيًا – "سقى كلبًا كان يلهث، يأكل الثرى من العطش، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله: وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟ فقال: في كلّ كبدٍ رطبةٍ أجر"[51].

في هذا الحديث يتضح لنا أن الإحسان إلى الحيوان المحترم – غير المفترس ولا القذر– كسقيه أو إطعامه أو نحو ذلك مندوبٌ إليه، لما فيه من إحياء روحٍ خلقها الله وأراد لها الحياة، ولما فيه من إيصال أسباب الحياة إليها ومساوقة تنفيذ مراد الله تعالى فيها. هذا في باب الترغيب باحترام كيانه. وأما في باب النهي عن إهانته فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله: "بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت، إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث، فقال الناس: سبحان الله، بقرةٌ تكلم؟ فقال: إني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر"[52].

وفي الترهيب من إيذاء الحيوان ورد "أن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها، فلم

تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض"[53]. وفيه دلالةٌ على وجوب الاعتناء بالحيوان على مالكه ومن يحبسه.

وأورد أبو داود بإسناد صحيح "أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل أربعٍ من الدواب: النملة والنحلة والصرد والهدهد"[54]، جاء في شرح مشكل الآثار للطحاوي: "فتأملنا ما في هذا الحديث طلبًا منا لاستخراج ما أريد به فوجدنا الهدهد ما لا ينتفع بلحمه ووجدنا الناس يستقذرونه، ووجدناه لا مضرّة على الناس منه فكان قتله للعبث لا لما سواه، وذلك منهيٌ عنه، كما قد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قتل من هذا الجنس بغير حقّه ما حدثنا المزني قال: حدثنا الشافعي قال: أنبأنا سفيان أخبرنا عمرو: أنبأنا صهيب مولى عبد الله بن عمر قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من قتل عصفورة فما فوقها بغير حقّها سأله الله عز وجل عن قتلها، قيل يا رسول الله وما حقّها؟ قال يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها". وفي هذه المرويّات المتسلسلة جيلًا عن جيلٍ من الرواة دلالةٌ على أهمّيّة الحياة، واهتمامهم بقضايا الدماء والأرواح، وغرس كرامة الإنسانيّة وحرمة كل ذي روحٍ في ذهنيّة الأجيال، وقيمة احترام الكائنات الحيّة، وإشاعة ثقافة السلم وقدسية الحياة في الوعي الاجتماعيّ العامّ.

وأورد الإمام أحمد قوله عليه الصلاة والسلام: "مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ"[55]. وفي روايةٍ أخرى: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "من قتل عصفورًا عبثًا جاء يوم القيامة وله صراخٌ عند العرش، يقول: يا ربّ! سلْ هذا فيم قتلني في غير منفعة"[56].

وجاء في ذلك حديثٌ جامع هو: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ كُلِّ ذِي رُوحٍ إلا أَنْ يُؤْذِيَ"[57]. ويمكن التعليق هنا بالقول: لَكَمْ تُزهق اليوم من أرواحٍ بريئةٍ من حولنا لأسبابٍ تافهةٍ وقضايا هامشيّةٍ قد لا يكون لأصحابها علاقةٌ بها من قريبٍ أو بعيد، وكم تشتّت أسرٌ وتعذّب أطفالٌ وتمزّق أوطانٌ، ولكن للأسف لا تنظر محكمة الضمير الإنسانيّ المعاصر في قضاياها، ولا تعير لها ما تستحقّه من الاهتمام!

إذن ينهى القرآن الكريم عن قتل الحيوان غير المؤذي، لأنه مخلوق مسبحٌ لله تعالى وبمشيئته سبحانه، ففي قتله أو تعذيبه مخالفةٌ للمشيئة الإلهية قد تؤدّي بالمرء إلى غضب الله عليه والتعرّض لعذابه الأبدي. وفي ذلك من تكريم الشرع الإلهيّ للحيوان وذوي الحياة عامّةً ما لا يخفى، ولا يمكن أن يضاهيه أيّ تكريمٍ على الإطلاق في مبادئ الإنسان.

ومما ورد في ذلك– وهي بلا شكٍ أخبارٌ شيقةٌ ومثيرةٌ للانتباه– "أن نملةً قرصت نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملةٌ أهلكت أمةً من الأمم تسبّح؟" وفي رواية: فهلّا نملةٌ واحدة؟"[58]. قال النووي معقّبًا: "قال العلماء وهذا الحديث محمول على أن

شرع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان فيه جواز قتل النمل وجواز الإحراق بالنار... وأما في شرعنا فلا يجوز الإحراق بالنار للحيوان، للحديث المشهور: "لا يعذب بالنار إلا الله"[59].

وبهذا يمكن التأكيد أنه لا يمكن للبشرية أن تحقّق الإعلاء الحقيقيّ من قيمة الحياة وهي معرضةٌ عن حكمة القرآن العظيم، ولا أن تنال أمنًا حقيقيًّا عامًّا متوازنًا وكليًّا، نفسيًّا وحياتيًّا، اقتصاديًّا واجتماعيًّا، وسياسيًّا وعالميًّا، ولن تطبّق نظامًا متوازنًا يحمل أسس الاستقرار الذاتيّ من داخل ذلك النظام للبشرية خارج حكمته العليا ونظراته الثاقبة؛ التي تمثّل في جوهرها أسمى معاني القيم الإنسانية والإشفاق على مصالحها.

ويمكن لنا أن نلحظ ونتوقّع بكلّ ثقةٍ أنه ستبقى البشرية ولدى كل فردٍ منها، تعاني من الويلات والكوارث المتلاحقة والمتناسلة، مهدّدةً إلى حينٍ بكلّ أنواع المخاطر الجديّة المحدقة، ما لم يتمّ الإصغاء بكلّ إجلالٍ إلى هذه الحكمة القرآنيّة، مع الاهتمام برؤيتها والعناية بنواميسها وتشريعاتها القويمة.

وقد آن الأوان كي تشرق شمس القرآن على عصر العولمة، فقد بدأ شعاع فجرها الصادق يتنفّس، من خلال اجتماع الرأي على ضرورة النظر في مبادىء القرآن الكريم وقيمه السامية، فهل يوجد في كلّ مبادىء حقوق الإنسان مبدأً أعظم من المبدأ الذي اشتملت عليه الآية الكريمة: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾؟[60].

إنه ما من شكّ أن البشرية ومنظماتها الخيرية لو أخذت به – ونرجو من رحمة الله أن يتحقّق ذلك يومًا ما – فسوف يرفل الكون ببهجة الحياة، وينعم الأحياء بالسعادة، ويشعر الإنسان برحابة الحرّيّة، على أنّ له حيزًا محرّراً في روح هذا الكون، وأثرًا معينًا في قلب هذا الوجود، ودورًا مقدّرًا في سيرورة التاريخ، وأهمّيّةً ما في هذه الحياة.

***

الهوامش

* **دكتور في قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية**

1. انظر: الأصبهاني، أبو نعيم. حلية الأولياء، بيروت، دار الكتاب العربي، ج2، ص 155. وكذا: ج10، ص361.
2. ابن رجب، أحمد. جامع العلوم والحكم، بيروت، دار المعرفة، 1408هـ، ص 221.
3. م. ن..
4. العروسي، مصطفى. شرح الرسالة القشيرية، المسمى: نتائج الأفكار القدسية في بيان معاني شرح الرسالة القشيرية للأنصاري، بيروت، دار الكتب العلمية، 1439، ج1، ص 7.
5. مرحبا، عبد الرحمن. آينشتاين والنظرية النسبية، بيروت، دار القلم، ص 129. بتصرف يسير.
6. انظر على سبيل المثال: صالح، أحمد. ثقافة مجتمع الشبكة، دمشق، دار الفكر، 2004، ص ص 39– 60
7. للتوسع يمكن الرجوع إلى مجموعةٍ من المحاولات العديدة لإنجاز هذا المشروع النهضوي، مثل كتابات الدكتور محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ومجموعة مقالات كتاب العرب والعولمة، بإشراف السيد ياسين. نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
8. مثل الفيلسوف الألماني آرثر شوبنهور. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، روني ألفا، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص47، وص575.
9. مثل الفيلسوف الشهير فريدريك هيغل، وكذلك فريدريك نيتشه وغيرهما. انظر: م. ن.، ج2، ص ص 571–573
10. أبو ماضي، إيليا. ديوان إيليا أبو ماضي – شاعر المهجر الأكبر، بيروت، دار العودة، ص193 و865.

11. خليل جبران، جبران. المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران، بيروت، دار صادر ودار بيروت، 1964، ص ص367–372
12. سعيد النورسي، بديع الزمان. الكلمات، القاهرة، دار سوزلر، ص10.
13. العقاد، عباس محمود. الإنسان في القرآن الكريم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص8–9.
14. انظر: صفحة ويكيبيديا على الإنترنت، مادة مشروع الجينوم البشري، باختصار.
15. يمكن مراجعة بيانات الدكتور صبري دمرداش على الصفحة الإلكترونية
16. انظر: بلوت، آق شمس الدين. دارون ونظرية التطور، مؤسسة الجيل الجديد، إستانبول، 1987، ص 39. كذلك: حامد، حامد. رحلة في جسم الإنسان، دمشق، دار القلم، 1991، 22 – 23. وكذا: نورباقي، خلوق. الإنسان ومعجزة الحياة، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1998، ص 19 – 21. ويمكن مراجعة بيانات الدكتور صبري دمرداش على الصفحة الإلكترونية.
17. موسوعة ويكيبيديا على الصفحة الإلكترونية، مادة نقد التطور، علماء يرفضون التطور.
18. سورة الانفطار، 8.
19. سورة ص، 27.
20. سورة الروم، 36.
21. سورة القيامة، 5– 6
22. صليبا، جميل. الفلسفة العربية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1986، ص80 و 251.
23. م. ن، ص:83.
24. انظر: رجا عبد الحميد عرابي، الكون والأرض والإنسان في القرآن العظيم، بيروت، دار الخير، ص239
25. سورة الإسراء، 70.
26. سورة الإسراء، 44.
27. سورة سبأ، 3.
28. سورة الحجر، 19.
29. انظر: الزحيلي، التفسير المنير، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1991، ج 14، ص 24.
30. سورة الرعد، 8.
31. م.ن.، ج 13، ص 126.
32. سورة الرعد، 3–4.
33. سورة يس، 80.
34. سورة الملك، 19.
35. الزحيلي، م. ن.، ج29، ص 25.
36. سورة النحل، 5–6.
37. انظر: م. ن.، ج 14، ص 90.
38. سورة النحل، 66.
39. انظر: الزحيلي، م.ن، ج14، ص168.
40. سورة الحج، 73.
41. صحيح مسلم، بيروت، دار الجيل، ج 6، ص 162، رقم 5665.
42. صحيح البخاري، بيروت، دار طوق النجاة، رقم 6012
43. صحيح البخاري، م، ن. رقم 6013.
44. ابن بطال، علي بن خلف. شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، 2003، ج9، ص219.
45. البيهقي، أبو بكر أحمد. السنن الكبرى، الهند – حيدر أباد، دائرة المعارف، ج3، ص19، حديث رقم 4932
46. صحيح مسلم، باب الأمر بالقوة وترك العجز، بيروت، دار الجيل، ج8، ص 56، رقم 6945.
47. صحيح مسلم، م، ن. ج6، ص 62 وما بعدها.
48. صحيح مسلم، م، ن. ج6، ص 72.
49. انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، ج 5، ص 426.
50. النووي، يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث، ج 13، ص 107.
51. صحيح البخاري، ج6، ص634.
52. صحيح البخاري، ج6، ص635.
53. صحيح البخاري، م.ن، ج 6، ص441.
54. سنن أبي داود، القاهرة، وزارة الأوقاف، ج4، ص 538. الصُرَدُ: طائر أبقع أبيض البطن أخضر الظهر ضخم الرأس والمنقار له برثن يصطاد العصافير وصغار الطير. انظر: الفيومي، أحمد. المصباح المنير، بيروت، المكتبة العلمية، مادة: صرد.
55. م. ن.، ج32، ص 220
56. مسند الشهاب القضاعي: مسند الشهاب، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج1، ص 312.
57. الطبراني، سليمان بن أحمد. المعجم الكبير، المعجم الكبير، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، 1404 – 1983، ج 12، ص 116.
58. صحيح مسلم، ص5997. ويلاحظ أن ذلك لا يمنع من قتل النمل المؤذي للإنسان في بدنه أو ماله مما لا يقدر على استبعاده. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، الكويت، وزارة الأوقاف، ج17، ص 283.
59. انظر: شرح النووي على مسلم، م. س.، ج14، ص 239
60. سورة المائدة، 32.

***